مجموعة قصصية

كرم صابر

غرفة الإنعاش

كتبت في الفترة من 2000 حتى 2008



غرفة الإنـعاش

مجموعة قصصية

كرم صابر

مجموعة قصصية : **غرفة الإنعاش**
المؤلف : **كرم صابر**
[مراجعة لغوية : **د. إبراهيم ربيع]**
الطبعة الأولى : القاهرة – ٢٠٠٩

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي : **صالح عبد العظيم**
الناشر : **مؤسسة [١٥/٣] للنشر والإعلان**
العنوان : مدينة الفسطاط ، المجاورة الأولى ، عمارة ٦٣ ، شقة ١٣
تليفون : ٠١١٥٨٥١٢٩١ (+٢)
البريد الإلكتروني : Info@15-3.net
الموقع الإلكتروني : www.15-3.net

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٠٧٢٥
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٣٣٥-٠٢-٨
التجهيزات الفنية : وكالة [١٥/٣] للنشر والإعلان

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

" الممر "

ولأننى لا أستطيع أن أواجه نفسى بكل هذا الكذب... ولأننى منذ يومين سمعت من أصدقاء أمثالا عميقة فضايقتنى " اللى ما يعجبوش أبوه وأمه ياكل من كمه" ، "القوالب نامت والانصاص قامت" ، "اللى ما تجبهوش رجليه تجيبه الحاجة "

****

أتذكر اليوم مارجريت وابنتها ديانا ، عالم من الأسفلت يغنى فوق سريرى ، هذا المارد الأفريقى ، ووجه إله الحب المتكاسل فوق طحين الجبل.

اليوم أنتظر البيوت والأراضى والدنيا الواسعة... لأقتحم هذا الممر... هل تفهمين فى غير لغة البار؟!

قالت: " كنت طالبة فى الجامعة ، ومنذ سنتين تعثرت ، قوية كالمهرة لكنى لم أجد الخيَّال... جاء رفيقى فحملت منه.. وهو الآن ينتظرنى كل مساء فى منزله.. أذهب لأستحم وأنام مع ابنتى... وهو لا يترك الكأس الدوارة... ولا يلعب إلا بورقة خاسرة.

أنا لا أهتم بالشرف أو البيوت المليئة بالبراغيث... أنا أهتم بأحمد المصرى... هل عاد "حربى" من المشاجرات منتصرًا عليك؟... هل قادك منصور وكرم أبناء الحاج عبد الله ليقذفوا بأطيب من فى البيت ليصيبك؟... هل تعلمت الدناءة؟... هل هذه البطولات كانت مزيفة؟

الم تكن أنت الوحش الذى يحمى الأرض؟... لا لم تكن... لأن الوحوش الذين طاردتهم لم يكونوا وحوشًا... كانوا تماثيل من ورق.

****

كيف أتتك الجرأة لتقتحم هذا الممر؟؟؟

كنت أتعلم فى مدرسة ابتدائية قديمة... فصولُها مبنية للفقراء الذين تريد منهم الدولة رجالا يدافعون عنها... علمنى مدرس التاريخ والعلوم أن أحب بلادى... وأن الحكومة فى أزمة وتريد رجالا... قلت أنا ابن الحكومة...

قالوا لا تصرخ هكذا... الحكومة تريد أولادها "شراميط"

قلت لا أعلم ... قالوا نريدك أن تعلم ... ابحث عن قواعد جديدة... قلت هذا ما تحتاجه الحكومة من رجالاها !! ... قالوا : نعم.

قلت أنا لا أمانع.. ولكن علمونى... قالوا : خطأ .. أنت لا تنفع ... نحن نريد كوادر متعلمة ... متدربة فى ميادين الحياة على فنون الشرمطة.

"من هنا جاءت رغبتى بمواصلة الطريق وكلما اكتشفت جديدًا فرحت.. لأننى أحس أننى أحد الرجال المطلوبين الذين يختارون الاختبار بكفاءة... لأننى اكتشفت جديدًا فى القانون... إذن فعلىَّ الآن اكتشاف بنود جديدة فى هذا العلم الكبير ... أبدأ بالاتصال... يقولون ها قد عدت لنسيان ما قلناه... نحن لا نقول أوامر... إن منهجنا أن تتعلم بنفسك.

قالوا أتخاف من الأزمات؟ قلت نعم... قالوا أنت حمار وكأنك لم تتعلم شيئًا... قلت .. لماذا الأزمات والمشاكل؟ يقولون لأن بنود الشرمطة لا يتم اكتشافها إلا فى الأزمات... قلت من هنا تأتى أهمية معارككم التى تفتعلونها بعض الأحيان.

ماذا يعنى عدم اهتمامنا بالدخول فى معركة... يعنى عدة افتراضات.... أن هناك اهتمامات لك أهم من معرفة بنود جديدة فى القانون... هذه الاهتمامات تترك بسببها معركة جديدة ومساحة متروكة ومناطق يمكن اكتشاف قواعد جديدة فيها... تضيف إلينا فى العلم الواسع الكثير.

أقف وحيدًا هناك وأتساءل: " ألم أكن أعرف كل هذه المعلومات عن هؤلاء؟ لا... ولكن المناخ لم ينضح بكل هذا الكيل ... وهل لدهشتك وانتظارك الآن أنك تريد أن تكتشف قانون الانحطاط؟

الافتراض الثانى أنك تريد بعض المكاسب ، فتدخل المعركة بقواعد جديدة تكسب فيها من أول ضربة... مثل ماذا... مثل الصفة الاستشارية فى الانحطاط.... ود بعض النخب المنحطة... بعض الأمان الانحطاطى... بعض الأصل المنحط.

وهكذا أكون متجاوزا انحطاطهم إلى ثقل انحطاطى يخفس بمن تسول له نفسه إلى مستنقع الخرائب.

وعلىَّ أن أعاود اللعبة من جديد ، مع الحكومة... لأكون من رجالها.

هل أنفع الآن..... فيقولون لا.... بعض الطاقة لديك... نحن لا نترك رجالنا إلا كخيل الحكومة... لم تسمع عن خيل الحكومة... ها هم رجالنا.

أقول لهم ولماذا كل ذلك؟.... يقولون من الجائز أن بعض الطاقة إذا استخدمتها حين نرضى عليك وتكون معلناً وشفافًا... أن تتمرد علينا.

والأهم أن الطاقة التى لديك يجب أن تضعها فى مكانها الصحيح فى استكشاف قوانين المستنقع حتى نستطيع أن نحكمه... بحجم حماسك بحجم نجاحك فى التقرب منا... وإذا سقطت فى الاختبار..... يصرخ أحد رجال الحكومة... يعنى ذلك أننا نجحنا.

"يااااه...... كل هذا الموضوع الكبير المستعصى على الفهم... كيف كنت سأفهمه؟ "

وإذا نجحت فى فهمه ... فعليك أن تنتقل إلى مستوى آخر... ونقول فزروة... وتسعى أنت للفهم... وإذا حللت كل الفوازير... نكون قد نجحنا... لأنك بذلك تعلن فشلك... لأن الفوازير لا تنتهى كالأرقام.

ولكن هل يمكن أن ينجو أحد من هذا الانحطاط.... ينظر المسئول الحكومى بقرف فى وجهى ... ويبحلق فىَّ... ويشخط فىَّ الحارس ليحضر له سم الثعابين وحريق ماء النار.... ويمسك كل واحدة بيد ويقول لى: إذا حاولت أن تنجو فستكون هاتان المكافأتان لك عقابا.... سنحرق بماء النار قلبك... وسنسمم عقلك بهذا السم... ليس أمامك إلا الجرى فى الممرات ، وكلما انتهيت من ممر قفزت إلى آخر... حتى تموت.

****

ها أنا فى هذا اليوم الحزين أبدأ من السلالم الأولى... وأنتهى إلى درجة لا أعلمها... أحاول أن أنظر ورائى ... أجد نفسى فى منطقة بعيدة جدا عن أول يوم بدأت فيه... ولا أجد إلا سراباً...

أظلل نفسى بكوب من القهوة ... أشرب حجرًا على الأسفلت لأعاقب نفسى... فأمر مرور الكرام على ذيل الخيل... ها أنا أنوى مغادرة المكان دون الاهتداء إلى شىء تاه منى... وأحاول البحث عنه.

وليكن غدا بحثى عن السؤال الأول.... كيف لرجل عاش فى الظل وتدرج على عشرات السلالم أن ينجو بنفسه من هذا الممر الواسع الفارغ التافه المنحط؟

وليكن بعد غد بحثى عن السؤال الثانى.... ما مصير مارجريت وديانا؟ !!!

"قبل الانفجار"

قاطعتنى أشواق البنفسج
والذى بيدى يوجد بقلبك
ولأنى مشغول بقلبى منذ الصباح
طارت العصافير

****

فى صباح اليوم نادى المنادى فانتبهت على صوتك المبحوح ، وأفزعنى صوت أم أيمن ، وقبحُ وجهها وقذارة عيون ابنتها رانيا وابتساماتهما المخطوفة، فخرجت ونسيت ابنى فى البلكونة نائمًا وتركت الباب مفتوحً ، وفى الطريق تذكرت وقلت لنفسى بمجرد أن أصل إلى العمل سأتصل بزوجتى لتستأذن من عملها وتعود للبيت لتغطيه.

عند دخولى من الباب وجدته واقفاً متبلد الإحساس ويقول: " أنا المدير العازب أول العمال آتى وآخرهم أموت ، أنا المدير الغازى ، وسالني : لماذا تأخرت؟ " قلت: " سيدى هاك قلبى على طبق يمكنك أخذه وفتحه لتعلم أننى أحبك وأحب عملى ، لكن مشاجرات زوجتى وخشونة وجهها الليلة الماضية وقذارة أولاد أم أيمن أنستنى غلق الباب على أولادى... فهل لشخص مثلى أن تعتمد عليه وهل يمكن أن تعشق عيون البنفسج ظهرك المخلوع منى؟

سيدى المدير : أرجوك اتركنى لحالى انت لا تعرف انه فى موكب أشبه بموكب سيدنا الحسين خرجت زوجتى إلى الحوارى تنادى المارة والجيران ليتفرجوا علىّ ، مشهد لم يتعودوا عليه فى هذا الشارع القذر ، مشهد امرأة تدمى هى وأولادها والزوج الذى كان ماسكاً ساطورًا وعاريًا يعلن أنه قاتل اليوم أو مقتول.

خرجت رؤوس الأولاد والنساء المليئات باللحوم من الشرفات ابعضهن يبكين للمنظر والأخريات يتشفين فى زوجتى وكبريائى ، وحضر الكهربائى والحداد والفسخانى والقهوجى والاسترجى والبنا والنجار جميعاً اتو و توسلوني لألقى بسيفى على الأرض وتعهدو بحل كل مشاكلي ، واخذ حقى.

هربت الفاجرة وسط الجمع ، وبعضهم كان يحرضها على الذهاب للقسم والآخر يحرضها على ضربى ، وكل الحرفيين والعمال حاولو مداواتي ، و تحولت إلى حيوان بمجرد أن رأيت الدم سائلاً من بين شعرها المكنوش.

كنت احكي وجيعتي والمدير ونائبه وسكرتاريته وبعض الموظفين المقربين والساعى والباحثون والمحامون حتى الزوار والجمهور ذو الناب الازرق والقلوب السوداء يتفرجون صامتون.

باغتنى زميلى بالسؤال: " يا هل ترى عامل إيه دلوقتي يا محمد أفندى؟ كأنه رأى عورتى ابن الكلب ، فبالأمس حين لامست جدران الحمام وجرحت وأنا ذاهب لأعمل مثل الناس وقعت على الأرض متزحلقاً بسبب الصابون وبقايا الأكل والغسالة المزعجة والمقشة والممسحة ولعب الأطفال والملابس المتسخة وأشياء أخرى كثيرة توجد فى هذا المكان الضيق الذى أبى أن يسعنى ضمن بقايا الملوثات المشروعة والمهجورة ، وأصر على أن يجرحنى وفى منطقة حساسة فى جسدى الضعيف ".

تذكرت كل ذلك بمجرد سؤالي وتذكرت أصوات الرجال تعلو فى مواجهتى ، أنا الوحش العارى ، بالله عليك يا محمد افندي تعطينا هذا السيف، علشان خاطرنا ، احنا أهلك وناسك ، يا سيدى الدنيا كلها بتتخانق بالله عليك يا شيخ ، ده أنت أحسن واحد فى الحتة ، ده أنت راجل كامل ، هو بس الشيطان اللى دخل ما بينكم ، ياله يا راجل دارى نفسك.

كان قلبى يتقد ، ومنظر البحر البعيد وهو مشتعل ليضيف إلى حرارة الجو هواءً حامياً ، وبدلاً من الخريف الذى يأتى منه ، تأتى إلينا نار، قلبى عصارة لأمراض تجاوزتنى فى السنين ، وبطاقتى عنوان مغلف بالتهكم وسرقة التموين ، أيعطوننى كيلو من الملح لأعطيكم بدلا منه سكر؟!

أتنشدون فى اللص الأمانة ، هذا ملخص للضمير ، وعيون مغلقة من فرط التهور ، أقلبى يأخذه الناس ليفتحوه ، ليجدوا فيه حجرات ، تأمل أن تراهم فى عيون المرض ملائكة ورحمة؟

هل عشقتم لون زهرة البرسيم ، أهذه البيوت الواطية والقذرة والنتنة هى بيوتى؟!

أهذه القلوب السوداء ، أهؤلاء الرجال العجائز ، أهؤلاء النساء ، نسائى؟!

أتريد أن تفهم ياقواد ياسال عن حالي، لماذا مسكت السيف ونزلت عارياً وخلعت قلبى ورميته فى آخر النهر؟!

تريد أن تفهم لماذا سكبت صفيحة اللبن الحليب على وحل البهائم؟!

كانت الحوارات تتداخل والصور تاتي وتختفي وأنا أسير تائهاً متوجها الي عملي.

كتمة الجو وحرارته جعلت الأجسام فى زحمة الباص كأنها العجين فى ماجور أمى.

أمى ، هل تتذكريننى قلبي الصابح يوم اغتال ضاحي جارنا خاله ، قابلته هذا الصباح وشد على يدى ونظر إلى قميصى الأبيض ، كانت النقود العريضة تلمع فى جيبي ، قال أتعرفنى ، قلت كيف أنت حبيبى وأبوك حبيبى ، قال فتحى مات ، ياه إزاى ، هل تتذكره ، فتحى أخى الذى كان يعمل معك فى البيارات ، أتعرف عباس جعفر ، المعلم عباس الوحش ، أنت تعرف أهلى وأعمامى ، فتحى مات منذ ثلاثة أيام. فتحي جارك الذي كان يلازمك في كل خطوة ، انه الثأر كان علينا منذ عشرين عاماً، أنت تعرف أن علىَّ مراقبة ثلاث سنوات قضيت منها اثنتين ، والضباط كلهم كانو يشيدون بأدبى وأخلاقى ، ويقولون: ضاحى واد رجولة ، اختار المجرم العاشرة ليلاً موعد توقيعى فى القسم لينفرد بأخى ويقطع رقبته من الخلف ، وهو جالس على قهوة حسن الجحش فى غفلة من الزمن، لا أطيل عليك عندما علم ضابط المباحث قال للمخبرين عينكم منه ، وميروحش عند التخشيبة.

أخذت سيجارة بانجو وشربت ، ومسكت البكتة فى يدى وقلت: يا باشا ، الأعمار بيد الله ، هو أنا اتجننت. ،قام وهاج ، كيف أشرب بانجو فى حجرته ، لكن المجرم حابس الأرواح عرف خطتى ، فحبسنى فى حجرة أخرى بعيداً عن ابن دلوعة، كنت أتمنى أن أطول رقبته الليلة الماضية لآكلها، لكن الصباح رباح ، فى النيابة أقعدوه فى عربة إلى أن انتهى التحقيق معى ، ثم رحلونى ولم أره ، لا أخفيك يا محمد افندي لم أتحمل أن يكون قاتل أخى مازال يتنفس الهواء حتى ولو دخل ثلاثين سجناً ،عند باب القسم غافلت أمين الشرطة وهربت ، اليوم سوف أقتله وهو داخل إلى القسم حتى ولو أخفوه فى طبق سحرى ، لازم أشرب من دمه.

اليوم ، يا أستاذ ، أنت سارح فين ، بقولك فتحى صاحبك ،أخوى مات من يومين، يا أستاذ ألا تعرفنى ، ألا تعرف أعمامى عباس جعفر ، عباس الوحش؟!

اقتربت الشمس من الأرض ، وبدأت الأجساد تتلاصق فى الأتوبيس ، والروائح النتنة تأتى من كل اتجاه لتعلن نهاية الرحلة.

عندما دخلت باب المكتب سلمت سكينى للساعي وتركت حذائى ورائى ، لينسانى البقال والنجاروضاحي وزوجتي وجيرانها ، لكن المدير العازب أمطرنى بسيل من التجريح لتاخري فانطلقت نحو حجرتى مُنْحنِى الرأس ، لأبدأ يوماً جديد أحاول فيه نسيان هروبى وقلة حيلتى.

"النمل يملأ الشقة"

طوابير النمل المنتظمة في المطبخ والحمام وحجرات الشقة تثير إعجابى وتدعوني كلما واتتني الفرصة كى أتفرج عليها.

أتتبع طريقها وهى تسير كطوابير فى خطوط عرضية وطولية ، وتحمل حبات السكر وبعض حبات المكرونة والرز الملقى على جوانب الحيطان فى الصالة ، وتذهب عبر شباك الحمام إلى الخارج .

منذ شهرين أتابع أسرابهم فى صمت وذهول ، وكل يوم يمر يتزايد عدد الطوابير فى جوانب الشقة وحوائطها ، أصحو من النوم فأجده يعمل منذ السادسة ، فوجٌ يحمل مكرونة وفوج آخر يحمل قطعة بطاطس عفنة ، وفوج آخر يحمى الآخرين.

وقبل أن تدق الساعة السابعة كانت رحلتي فى متابعة النمل تنتهى ، فمنبهات الموبايلات تبدأ بزعيقها ، رنتي أغنية لفيروز ، ورنة بنتي أكدب عليك ، ورنة ابني لحن أجنبي غريب غير مفهوم.

تصحو زوجني كل يوم بانتظام ، تسب الدين للموبايلات ومَنْ صنعها ، وتطلب منى أن أرحم الأولاد اليوم ، وأتركهم ينامون ويأخذون أجازة من الدراسة: " أرجوك خليهم ياخدوا أجازة يوماً واحداً ".

"يوم واحد فقط يكفي لإصلاحهم... وتهذيبهم " أنظر إليها رافضاً اقتراحها ، فتستمر في سب الدين ، ويستمر الأولاد في النظر إلىَّ باشمئزاز لأننى أرفض راحتهم.

أنظر مرة أخرى لفوج النمل وهو يجرى مهرولاً من الصالة التى تعج بكل أنواع الكراكيب والصراعات المكتومة بين فرد الشرابات والكراسات والكتب والأحذية والجرائد وبقايا السجائر والأكل وقشر الفاكهة واللب والسودانى.

أنظر إلى الصالة وأصاب بالهلع ، أنظر إلى صفوف النمل الهاربة وأحاول أن أختفي من الصالة ، فأجرى على برشامى الملقى فى الدرج الوحيد لى في الشقة ، وأطمئن على ملابسي في الضلفة الوحيدة لي في كل الدواليب.

ألبس سريعاً دون النظر إلى عدلة الفانلة أو فردة الشراب ، وتصيبني حالة هلع للهروب إلى خارج الشقة أنا وأولادى ، لا يهمنى وقتها مَنْ لَبِسَ شرابه ومن أخذ كتب اليوم ومن ترك موبايله ، المهم الهروب.

أدرك بتلقائية أن ترك هذه المزبلة والخروج سالماً إلى خارج الشقة مجتازاً صفوف النمل المتراصة من شباك الحمام إلى الشارع الواسع هو الحل الوحيد الآمن.

منذ عدة أيام لمحت بجوار سريري صفًّا من النمل الكبير ، كان جريئًا وشكله غريبًا ويميل إلى شكل الفئران ، يقف بجوار السرير لحظة ثم يمر من أمامي ينظر إليَّ ، يبحلق فيَّ ، ثم يستكمل مسيرته.

منذ أيام بدأت أخاف على نفسي من النوم على سريرى ، أخاف أن تلتهمني الحشرات التي جعلت من شقتي مأوى لها.

في البداية كنت سعيداً بصفوف النمل لأنها كانت تأخذ رزقها منا وتتركنا في حالنا ، كنت أقول لنفسي لن أخسر شيئاً.

الشيء الذي أخافني منذ عدة أيام أنني وجدت حين صحوت فى الصباح لأراقب صفوف النمل خلف الدولاب منظراً لم أكن أتوقعه ، كنت أسير وراء سرب النمل حتى وصل خلف الدولاب ، فأخذت كشافاً صغيراً كنت قد أهديته لابني الذى يعشق أن يعيش في الأدوار البوليسية ، وحين أضأت الظلام خلف الدولاب ، كان المنظر مريعاً ؛ بيوت من الرمل متلاصقة على الحائط ، في أشكال هرمية متناسقة وتمتلئ بنمل كبير الحجم أسود وبنى وأبيض.

كانت الأرضية كلها نمل لا توجد بلاطة واحدة إلا وعليها بيوت وطرق ، لم تمهلنى رنات الموبايلات كي أستكمل متابعة بيوت النمل وأنواعه ، كانت زوجتي في وسط الصالة تصرخ وتسب الدين لي وللأولاد والموبايلات وتطلب مني أن أرحم الأولاد وأتركهم اليوم كأجازة.

تابعت نظرات الأولاد لي بالاشمئزاز نفسه ككل يوم وهم يعرفون ردى بالرفض ، حاولت مسرعاً أن أساعدهم على البحث عن شَرَباتهم وأقلامهم وكراساتهم بين المخدات والشباشب وبواقي الأكل واللب والملابس والسجائر.

قلت لنفسي لن ألبس اليوم ملابسي قبل أن يخرجوا من الشقة ، كنت أرتعش خائفاً ، من منظر النمل الأبيض الذي يمكن أن يأكل أذن أحد أبنائى إذا تركتهم بالشقة ، كانت زوجتي تصرخ وتلعن اليوم الذي تزوجتني فيه وتسبني للبهدلة والقرف والأيام السودة التي تعيشها معي.

أنظر إليها ، مرعوبًا من النمل المتنوع الزاحف خلف الدولاب ، كان ابني يحاول وضع مسدسه في الشنطة دون أن أراه ، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى تركته يضع مسدسه في حقيبته ولم أعلق ، المرة الوحيدة التي لم أعطه نصائح عن دور المدرسة ودوره فى النهوض بالمجتمع ، المرة الوحيدة التي شتمتْ فيها زوجتي كل الشتيمة دون أن أنظر إليها أو أحس بالاستياء ، المرة الوحيدة التي فكرت فيها بالهروب مع أبنائي خارج هذه الشقة التى أعتبرها منذ اليوم منزلاً للنمل والحشرات.

"الماضى الذى يعيش بداخلنا"

مر أكثر من عشر سنوات على وفاة "صبحى خلاف" ، ورغم قسوته وبرودة أعصابه وعدم حبي له ، فإننى فوجئت به بالأمس يجلس فى بلدة بعيدة دعانى بعض أهلها للحضور لحل مشكلة بين الأهالى والعمدة.

حينما وصلت إلى هناك فوجئت بجلوسه فوق كوم القش حليق الذقن على غير عادته ، يلبس جلبابًا من الصوف الأسود نظيفاً ، ويملأ المكان بتعليقاته المزعجة.

"قبض ثمن حضوري" وتهيأ لي وهو يستلم المبلغ من أحد شيوخ القرية كأنه يأكل لحمى ، رسم فخًّا حتى أحضر إلى هنا ، تذكرت جملته الشهيرة "لو الكلمة فيها شفاك ، لو الدكتور كتبها لك في الروشتة ، فلن أقولها لك ".

في الجلسة قادوني إلي الماضي الكئيب وبعض الذكريات الميتة ، قالوا كنا نعرفك ، كثيرون منا كانوا يحاولون قتلك ، لكنا أجلنا ذلك حتى نلقاك ، باغتتنى الأفاق: "لماذا ترفض الصلح؟" قلت مَن رفض الصلح يا حاج؟ ليست هناك مشكلة مع أحد كي أصالح ، قالوا كيف؟ لقد عرفنا أنك قاطعت الناس والأيام الخوالي والماضي ، كثيرون منا كانوا سيقدمون روحك هدية للجموع ، لماذا حرمتهم من ذلك؟ قلت ليست هناك مشكلة مع أحد كي أصالح.

أخذونى وركبنا "تاكسي" قديمًا مملوكًا لعبد المنعم الجبرونى "زوج الاتنين" كنت أعرفه بلزوجته ورائحة كولونيا الليمون التى تفوح من وجهه.

لم يتحدث عبد المنعم طوال الطريق ونظر إليَّ خارصاً لسانه ، كان "صبحي خلاف" يركب بجواري ، قلت في سرى : حين أخرج من هذه البلدة سوف أقول لهم جميعا: " ألا تعرفوننى أتنازلون المستقبل وأنا الحاضر؟ كيف جرأتم على إجبارى للدلو بأقوال لم يتفوهها لساني؟ كيف يمكنكم فعل ذلك؟ "

كانت كرات النار تتلاقى عند مدخل الطريق الذي سيمر منه التاكسي ، كان الناس يتظاهرون وقتها ، كأنهم يرحبون بوجودي ، أو يلعنونه.

كانت هناك وجوه كثيرة كنت قد نسيتها ظهرت فجأة ترمقني بعيون مندهشة ، كانت علامات كثيرة تدل على رغبتى في الموت وقد حرمت منه عندما تفادتني عربة مجنونة كنت أتمنى أن تدهسني في الصباح.

قلت لنفسى: " علامات غير مريحة " ومن آتى بي إلى هنا؟!" كيف استطاعوا أن يجروني حتى الي هذا الماضي الكئيب ، أتظهر فجأة وتطلب مني الصفح والنسيان والمصالحة يا صبحى؟ " أنا دائما أنسى الماضي ولا أتذكر منه شيئاً ، الحاضر دائماً يبني ما كسرته الأيام ، لم أعد أتذكر سوى قلبي المحطم خلف قضبانك ، لم أعد أتذكر غير عيون الجواميس التى ملأت حقول الكرنب ، كيف جروني إلى هنا؟! عندما أخرج من البلد سوف أنظر إليهم جميعًا وإلى الماضي نظرة المقتول.

عندما أخرج سوف أقول لصبحي خلاف : " أيها الأفاق "قبضت ثمن حضوري" وأنتم أيها العجزة والمرضي ألا تعرفونني؟! لم يفارق قلبى الميت المنهار أثناء لقائى صوته وصورتها.

مرة أخرى لن يجبروني على تذكر كل ما فات ، لن يجبروني علي النسيان ، فجأة انتفضت من على السرير ، كان البرد قارساً ولساني يصرخ ، لن يجبروني ، لن يجبروني ، كان مشهد زوجتي بشعرها المنكوش وهى تصرخ في الأولاد كفيلاً بعودتي ، حاولوا تهدئتي ، نظرت شمالاً ويمينًا ، كان اندهاشهم كفيلاً بتذكر كل الماضي الذي يعيش بداخلنا.

"**الصياد**"

لم أكن أصدق أنني سأظل حيًّا حتى عصر هذا اليوم ، لم أكن أصدق أنني سأمر عبر كل هذه الطرق والحوارى والبيوت والعلاقات وأعود مرة أخرى وسط كتبي المهملة ومكتبي القديم وحمزة القهوجى والحقول الواسعة وأهلي وأصدقائي القدامى ، لم أكن أصدق أنني سأنجو ، أي صوت للموت أعفى عني وأعادنى إلى هذا الطريق؟ وكيف خرجت حيًّا بعد كل هذه الحيل؟

عاد الصياد مرة أخرى إلى البيت القديم ، ومياه البحر التي ليس لها آخر ، عاد الصياد ومعه الخريف ، انتهى الربيع ، لم أصدق أنني هنا ، كيف عبرت كل هذه البحار وسبحت كل هذه المسافات دون أن اغرق ، كيف نجوت؟

هل كنت تحتاج لمعاشرة الصيادين لتستمتع بالقصص من الذين يعودون إلى البر سالمين كالأبطال؟

كانوا معي فى البحر ولكنهم غرقوا ولم يتبق لي سوى ذكرى حزينة.

هل تذكرهم حين باغتوك ورموا كل أطواق النجاة بالبحر ليصلوا إلى النهر غرقى؟ هل تتذكر الأمراض ، والفيروس ، والسكر ، والفشل الكلوي؟

هل تتذكر السعادة واللحظات التي أخذتها من الحياة والروح التي زرعتها وزرعتك ؟

كانت رحلة ممتعة أيها الصياد لأنك عدت سليماً معافى.

ولكن ما الذي دفعك إلى الهجرة والرحيل ودخول هذه المغارة؟

كان هناك سبب ما، ، وكيف استطعت أن تبحر في هذا العالم لتقابل أشباحاً وفوضويين ، ومهرجين وضحايا ، ومحبرين ، وطلاب علم ومال؟

ما الذي دفعك إلى اختيار هذا الطريق؟ وهل عدت؟ هل كان عمي غنيم يجري ورائي خلف الساقية؟

هل مات أبي وجدي وجدتى؟ هل خطف الموت أمي ، وهؤلاء الأطفال الكبار أبنائي ، والأصدقاء الحالمون بأوهامهم هم اصدقائي؟

هل عدت أيها الصياد العجوز.

"**الخوف**"

كانت الشمس تتوسط النهار وكانت أمى خلف حواصل الذرة ترفع جلبابها المتسخ لتعمل كما يعمل الناس فى العراء.

وكانت البطة تنظر إلى أمى بعد انتهاء مهمتها لتقوم بدورها فى اللحس ، وكانت العصافير تطير وتنتظر الصباح وضوء النهار الحزين ، وكان انتظار الفجر فى العربات ، وعبادة العربجى بسبِّ الدين للأشجار والأنفار وعشش الزبالة ليأتى بحماره ويركب العربة الحزينة بجوار امه ويعلن بدء النهار.

يحكى صوت امه الغليظ من خلف الحوائط حكايات الصباح عن الليل الفائت والسوق الدامية المملؤ بالفقراء والأنذال والقوادين والرزق المبعثر القليل ، وسط الحكاوى يقف الحمار الحصاوى ليسب عبادة الدين للصباح والنهار والسوق والبيوت والرجال العوانس ، وأمه تعلن للنائمين أن عبادة ابنها وهو فى الخمسين من عمره مازال خائباً ، يعتمد على امرأة عجوز تبيع الخوخ والرمان ، كانت امه تسمى بأم عبادة ، وعبادة يسمى باسم أمه ، ورغم وجود زوجته العاقر التى لا تلين تحته من كثرة الشقاء والتعب ونحس الأيام السوداء فإن السوق كلها تناديه بعبادة ابن أم عبادة.

كنت أنتظر يوميًا مرورهم من أمام منزلنا كل فجر ، لأسمع جزءًا أمه وهي العجوز تحكى عن السوق القديمة والجديدة وأسعار النفط الأسود الذى ارتفع بسببه سهم على كوباية وإسماعيل الهلب.

أنتظر بشغف وقوف الحمار ليعمل مثل أمى وكل الناس فى الحارة ، فيسب عبادة الشارع والسوق والحوارى والشغلانة الزفت التى كتبت عليه.

لحظتها ينهض جدى الصاحى دائمًا ، ينادى على أمى لتحلب البهائم ويقول بصوته الهادئ الرصين: " يا زهيرة الظهر هيأذن ، يا ولاد الكلب اصحو ".

أمى هى أول من يقوم فى البيت الذى يزيد عدد أفراده على عشرين ، أول ما تفعله أن تختفى بجوار السلم الخشبى والطلمبة لأسمع صوت مياه على أرضية المنزل لتعلن للنهار الطويل أنها قامت من النوم.

الجميع يتناوب الصحيان وأول شيء أفعله ، فعل أمي ، وبعدها بدقائق يتحول البيت إلى السوق ، فإخوتى التسعة وأولاد عمى السبعة وامرأة عمي وجدي وأبي وعمي الجميع يقفزون من النوم ، وينزلون فى روث البهائم ، وأصوات حليب اللبن فى الجرادل تتناوب مع الأخرى ولا يقطعها لا سب الدين للعجول التي تمنعنا من القيام بالانتهاء من هذه المهمة كى يحمل أبى اللبن على درَّاجته ليخرج على الفتاح الكريم نازلاً أسواق العتبة وشارع الألفى ومحمد على وعماد الدين يعطى للقهاوى وسوق الكهرباء وحارة اليهودى الحليب.

أقف على السطح فى نسمة الفجر ، أنتظر العصافير التى تأتى والبلابل التى تغنى للصباح فيصرخ عمى فى صحن الدار ويسب الدين ، فأجرى مهرولاً للحجرة وأختفى تحت السرير النحاسى خوفاً من عيونه.

يبحث عنى ليعطينى نصيبى ، وخوفى من الألم يجعلنى أخفى وجهى كاملاً فى جسمى ، تأتى يداه على رأسى ويبحث عن عصاه ، أجرى سريعاً وأمسك حبل جاموسة ، أجرى أمام جميع الأولاد خوفًا من عيونه ، أختفى خلف الجاموسة ، لكن عيونه مازالت تلاحقنى رغم موته منذ أكثر من عشرة اعوام.

"الرحلة"

اليوم أحكى لكم قصة جديدة مكررة ومملة عن رجل لم يبلغ عمره خمسة وأربعين عاماً ، كانت رحلته طويلة مملوءة بالحياة والصراعات والحب والكره والمال والنفوذ .

البطل المريض يعشق الحب ، فأعطته الدنيا وأخذ منها بملء يديه ونسى نفسه .

كان جده يقص حمير وجمال الفلاحين والعربجية وأصحاب قماين الطوب ، ومسالمًا إلى درجة تثير الاشمئزاز ، وأدى وجوده إلى جعله نجماً بالرغم من أنه لم يدخل معركة حقيقية فى حياته.

يستعين بالأصدقاء والأهل ويستخدمهم ثم يلقيهم بعيداً ويبحث عن غيرهم في صراعاته الوهمية حول المال والحب والنفوذ.

يبذل مجهوداً كبيراً كي يصنع أسطورته ، عاشر النساء ، والقوادين والمتسلقين كي يظهر في حياتهم كمنقذ كاذب.

سرق المكتب الذي كان يعمل فيه ، واستخدم المفتاح الذي أمَّنه عليه صاحب المكتب في إحضار النساء ليمارس معهن الجنس ليلاً بعد مغادرة الموظفين ، وسرق مبلغاً من أبيه كي يشتري شقة لزوجته ، وزرع الفرقة بين الأهل كي ينال النصيب الأكبر من الحب ، يعرف طريقه جيدا ويستخدم مشاعره الجميلة التي أنعم الله به عليه دون الآخرين في الوصول إلى غاياته.

حرق مشاعره أكثر من مرة ، وألقى بأصحابه من غرف الحمام ، ووضعهم في كيس الزبالة.

كان قادراً بسبب الحفاظ على مصالحه أن يدوس كل شيء دون أن تهتز له شعرة أو يرمش له جفن.

حين تودعه مشاعره يشرب ليكتب عنهم مرثية وداع حزينة.

ثم يعاود حياته وكأن شيئًا لم يكن.

كيف واتتك الجرأة لتجتاز كل هذه الحواجز؟ ومن تكون الآن؟ صاحب النفوذ أم رجل الأعمال أم المحامى ، هل أنت الزوج أم الأب أم العم أم الخال أم الابن أم الصديق أم الحبيب؟ كيف واتتك الجرأة لتخرج من كل هذه الحجرات إلى شوارع المدينة المزيفة؟

كانت كلمات صديقى على مقهى بالوراق تهز مشاعري فأذهب مسرعًا للبيت لأسجلها كما هي صافية ووديعة ، هل تتذكر هذه الأيام؟

حين قمت مرة بمراجعة يومياتي ، كنت أضحك على هذا الإنسان الذي تاه مني وسط الحياة التى كانت كفيلة بجعله أنبل شخص في العالم.

كان أهله يغشون اللبن ببراءة غريبة ويشاركون في إفساد العالم ، وكانت أمه المملوءة بالحياة كفيلة بأن تعرف كيف تعالج كل الزيف.

كنت أسال نفسي باستمرار كيف يتحول الإنسان في الدقيقة الواحدة ليصبح بألف وجه ؛ وجه للحب وآخر للقسوة ، ووجه للموت وجه للعشق؟

كيف واتتك الجرأة لتتخطي كل هذه الحواجز كي تصل إلى هنا؟ كيف تزوجت من امرأة لا تطيق وجهك أنت وبناتك؟ وينحصر همك اليومى في تأمين أهلك كي تضمن لنفسك وضعًا اجتماعيًا أفضل ، واسمًا لعائلة كريمة ، ونسيت أنك ابن الحشاش.

ألا تعرف حتى الآن من أنت؟ ولماذا تعيش؟ كانت الأموال في طريقك فرفضتها ، كانت المرأة بطريقك فرميتها ، وكان النفوذ أملك فمللته ، كانت هناك فتركتها وزحفت لتصل إليها فلما وافقت على معاشرتك ، أحسست بالقهر واشتعل الحريق داخلك ، فرميتها بعيداً وأنت لا تعرف عما تبحث ولماذ تعيش؟

أمك الوحيدة التي كانت تعرفك ، تنظر إليك فتعاتبها فيدغدك صوتها ، الوحيدة التي تفهم قهرك وقسوتك ، وفى اليوم الذي فهمك أبوك مات.

هل تتذكر كلمته الأخيرة؟ "ياه ومين هيستحملك أنت" ، كيف قسوت عليه وواتتك الجرأة كي تقتله؟ ولماذا كانت أمى تجتاحني؟ نظرة واحدة منى كانت تكفيها ، نظرة واحدة كانت كفيلة

باستمرارها حية ، لكنك بخلت عليها ، نظرة واحدة كانت كفيلة بأن تستمر ، صدرت لها وجهك القاسي ، فلم تتحمل ، ورحلت إلى غير رجعة.

هل تحكى الآن عنى أم عن شخص آخر فقدته للأبد؟ تذكر وأنت تحيا بيننا بألف وجه ، من أنت؟ هل تتذكر؟ وتستطيع أن تسجل كل هذه الوَسَخَات وتستمر.

كانت رحلة العودة بشعة ؛ حيث عانيت بنفسك كل جرائمك ، كل الجروح والشوارع المملوءة بالدم والموت والحقد.

هل تستطيع أن تستكمل رحلة العودة؟ كانت تقف هناك وأنت تشير إليها بأصابعك لتعلن أنك سوف تعود ، وأنك سامحتها على كل الأورام التى ظهرت في جسمها ، سامحتها على محنتها ، على كل الذين عبروا فرجها بسبب ضعفك وهزيمتك.

كانت تعاشرهم في محاولة لرفضك ، فهل سامحتها على زوجيها الأول والثاني وعلي أولادها المشوهين الذين ولدتهم ، وأولادها الذين فقدتهم ، وأولادها الذين لم يأتوا قط ، سامحتهم جميعًا ولكن هل سامحوك؟

في رحلة العودة كانت تتصبب عرقًا ، أنت واقف متبلد الإحساس ، تقف خلف الباب بغبائك وهى تقول لك ، تعالَ إلىَّ ، لا يهمك أبى ولا أمى ، تعالَ إلىَّ ، فهم سامحوني ، ألن تسامحني؟ كانت القهوة والشارع الملىء بالناس مبتهجًا بأغبى شخص عرفوه هو يحاول العودة إليها، وهي مازالت تقف وتتساءل: " لماذا أصدقك؟ "

كان يمشى على الحيطان حافي القدمين عاري المؤخرة ويحاول الرجوع ،فهل ينجح؟ كانت رحلة العودة كئيبة ، وهو يحاول بمؤخرته العارية أن يعلن للجميع بطولته ، لكن أحداً لم يصدق لأنهم لم يسامحوه.

"**صديقى**"

يا ترى عامل إيه؟ لسَّه فاكرني ولا الدنيا أخذتك؟ والغربة الطويلة جعلتك تنسى ناسك وأهلك ، أوعاك فاكر إن الدنيا غيرتنا رغم العيال والغربة ، مقدرتش أنسى أجمل أيامنا وأجمل لحظات عمرنا ، أوعاك فاكر إن احنا نسينا أهلنا بسبب الظروف الوحشة.

محتاج النهارده أحكي معك ، رغم سفرك البعيد وغربتك ، حاسس إنك قريب منى ، فاكر السطوح الواسع ، والغيط ، وسوق الخضار ، فاكر هروبنا من المدرسة ، والخناقات على الكتب والشرايط.

لما كبرنا شوية صاحبت البنت الجميلة "أمل" وخرجنا مع أجمل البنات ، وفرقتنا الدنيا والحاجة ، العمر بيجري والأيام بتمر ، ومحتاج الواحد فينا لحد يتونس بيه ، يطبطب عليه ، علشان يقوله ، أنت غلطان ، إنت صح ، أي حاجة ، المهم يقوله ويفضفض معاه ، أقرب الناس ليك مش عايزينك ، كل حاجة النهارده بقت ذكرى ، كل شيء باهت.

محتاج الواحد منا بعيدًا عن الأخوات والبيت والفلوس والشغل ، إلى صحاب ، يحبهم ويحبونه بدون تمن ، فين محمود زهران ولبيب ، عاطف وعبد الغفار وإسماعيل فؤاد ، كرم عبد المجيد ، أصحابنا ، وعبد المولى وهشام ، كل واحد فينا أخذته الأيام وهربت ، وحشتني أيامهم ، مش عارف أجيبك إزاى ومنين يا حبيبى؟!

خلى بالك من نفسك ، حاول ترجع ، أنا هروح بكرة لأبوك أنا والعيال ، نفكروه بأيامنا ، خلي بالك من نفسك ، احنا محتاجنلك ، هاخد من عمي المدنى عنوانك ، وهاكتب لك كل يوم جواب ؛ لأنك وحشني قوي ؛ لأني محتاج لحد يقولي خلي بالك من نفسك يا صحبي.

"المشهد الأخير"

فى المشهد الأخير والأسابيع الباقية ، كان كل شيء جاهزاً للرحيل ؛ القلوب المتفحمة ، العيون المندهشة ، العجز والحقد والتشفي.

تصرخ البطون بألا أعود كي يستطيعوا العيش عمرهم الباقي مسالمين ، هل كانوا هنا؟ الشيء الوحيد الذي كان يحزنني في المشهد الأخير هؤلاء العجائز اللاتى رأيننى ببني سويف وهن يتوسلن ، كي أبقي.

الشيء الوحيد الذي يبكيني هو صور الأرامل والأطفال والمحرومين الذين وقعت عيني عليهم وسمعتهم طوال العشرين عاماً الماضية ، فصدقوا أنني المخلص على الرغم من أنني لم أعدهم قط بشيء ، لكنها الرغبة في وجود أحد هناك يتضامن معهم في مصائبهم.

الشيء الوحيد الذي يدفعني إلى ترك الساحة والهروب هو منظر العجز والصمت تجاه من يحبونك ويتوسلون إليك أن تبقى ، وتستطيع مرة أخرى أن تكذب عليهم وتخدعهم وهم ينتظرون قدوم المخلص الذي هرب.

الشيء الوحيد الذي بقي لي هو الحسرة والحزن على كل أولئك الذين صدقوا نبرة صوتك وطيبة عيونك ، لكن المخلص اشتد به التعب وقرر فجأة أن يستريح ، الشيء الوحيد الذي يمنع ترددك هو الحرمان من الحب الذي طالما أعطيته لهم ولم تجن سوى القسوة والحقد.

الشيء الوحيد الذي تحتاجه الآن هو الرغبة في دفنهم هناك في المواقع القديم كي تتساهم جميعاً ، ليتذكروك بتشفٍّ! ويبصقوا في وجه الحياة ، كلما سمعوا عنك أو جاءت صورتك بالصدفة في مخيلتهم.

الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تتكره على نفسك أنك كنت هناك ، ومهما حاولت الهروب ورميتهم في وادي الموت لتخلق من جديد قلباً يضيء الطريق لتتزايد أطماع البشر وتغري الغلابة بعيون وحنية مزيفة ، لتحرق من جديد الزرع الأخضر اليافع أو تبني فصولا للمحبة.

الشيء الوحيد الذي يمنعك هو جنونك ، في يوم ما إذا قدرت لك الذاكرة أن تتذكر فلا تنس مشهد اليمامة التي حاولت أن تبيض بشباكك وفشلت طوال السنوات العشر الفائتة.

في يوم ما إذا قدرت لك الذاكرة أن تتذكر ، فتذكر لحظة السعادة الوحيدة التي واتتك لمدة دقائق وكنت تطير من الفرحة وصوت عفاف راضي يغني طاير يا حمام ، لكن كرههم وغلهم ، وقسوتك وجبروتك لم يعطك الفرصة أكثر من دقائق لتفرح ، فقد جاءك عبر التليفون يحكي لك عن الشر والأعداء والموت ، وبقسوتك المعتادة رميت شعلة النار عليه ، لتحرقه كي يكون آخر مشهد تتمنى ألا تتذكره.

"الطريق للحرية"

شيء مدهش أن تخاف من كل المحيطيين بجسدك......... شيء مدهش أن تهتز كل جوارحك لتواجه شيئاً أنت لا تعرف مداه.

شيء مرعب أن تمشى مبتلاً وكل جوارحك لم تلتئم بعد.......... السكن......... البيت......... العمل.......... نفسك.

وأن تسير فى غابة ؛ كل شيء فيها مباح حتى قتلك بهدوء خلف الجدران.

شيء مدهش أن تهتم بحالتك لتكتشف كذب وزيف كل شيء..... وتسأل نفسك لماذا أنت مضطر لقبول كل ذلك؟

فلا تجد إجابة سوى أنك ستخسر قيودك.

ولماذا أنت حريص على قيودك؟

لأنك تخاف من مواجهة الواقع !

كانت فترة طويلة ظللتُ فيها حبيس الأدراج والملفات والجرائد ومتابعة عيون البشر.

ماذا يخبئون؟ أنت وحدك تسأل.... ولا تجد إجابة سوى المزيد من التساؤلات والرغبة فى الحيرة !

تحاول أن تخرج.... أن تفكك قيودك.... وأنت تلعن كل الاحداث التى جعلتك وحدك ، فى حيرتك وخوفك ودهشتك، والعالم يبرطع فى الحرية ،و يبحث عن المستقبل ،ولا يستثنى أحداً غيرك.

تقاوم.... وتحاول مرة أخرى أن تبعثر الضوء على الناس.... فيأتيك الظلام.

من أين يأتى....... من حوارى ظللت تعيش فيها آلاف المرات.

وتغرق فى الوادى البعيد............. ظللت تعيش فيها آلاف المرات وتمشى فى الوحل.

تهرب.... وتحاول أن تستجمع الكلمات.... لكن حواسك تهرب منك فترتعش يداك وتهتز جفونك وفمك وتبعثر الموت على الجميع، لتعيش وحدك محاصرًا.

شيء مرعب أن تفكر في استباحة كل شيء ..... حتى هذه البهجة المسروقة، وتنشر عيونك حولها كل هذه الحيرة، وأنت مازلت هنا بخوفك تحاول وتحاول، وتصمد وتطلب من الله ألا تنفك ، لماذا؟ لأنك وحدك المحاصر .

تخاف أن ينتهي دورك القديم....... ونفسك تواقة إلى الحرية ...... وأنت تحاول من جديد أن تلغي الفوارق بين الحزن والحياة.

بين الأشياء التي فقدت منك والأشياء التي تتمناها..... فتنزوي في الحلم......... تبحث عن المسافة الوهمية بين القيد والحرية بين الأمل واليأس .

وتخاف أن تبدأ من جديد رحلة الشارع والبيت والعمل والأصدقاء............... تخاف أن تنهار كل الفواصل المنهارة وأنت تقف وحدك وسط الدمار وتحاول أن تمنع انهياره أو حل قيوده.

وهي تئن........ وتصرخ فيك....... سوف أسقط حاولْ أن تهرب..... حاولْ أن تبني بيتاً... عملاً... شارعاً... أصدقاءَ جددًا فوق أنقاضي.. وأنت تحاول وحدك أن تصمد وهي بعيدة ، تهرب منك لأنها لا ترغب في أن يصيبها البركان الذي سيخلق كل شيء من جديد.

شيء لا تعرف مداه.... شيء سيدعو للدهشة والخوف والحب والحياة.

شيء لم تسترعِ انتباهك فيه أية إشارة أو علامة لموت أو خيال أو أحلام قد ذهبت فعلاً.... وأنت وحدك المقيد... تحاول أن تمنعها من الانهيار..... فتتردد.... وتبني نفسها على أنقاضك وتخرج لحظة ترددك.

وتنتشي وهي تقف وحيدة أسيرة بقيودك.

التي ترددت لحظة في كسرها..... تحاول وحدك أن تنساها.

وتبدأ من جديد في مكان آخر وزمن آخر وعمل آخر وبيت آخر وحب آخر.

والآخر البعيد يقف في انتظارك ، تراه كل يوم ينادى عليك وأنت تحاول هدم الزمن، المبانى البالية، لتصل إليها وتزيل كل القيم الزائفة.

تتبعثر حلقات القيد فى الأسواق........ وتلعن وحدك كل من يرغب فى ارتدائها ... كانت ثقيلة تلك الحمول...... كانت ثقيلة........ لماذا إذن حزنك بعد إزالتها من على ظهرك؟

لماذا إذن حزنك على إلقائها فى الشارع الخلفى كى لا يراها أحد؟

وتحاول من جديد أن تصعد إليها وتقترب... تراك ، تنادى عليك يا حبيبى !! كفاك حمولاً يا حبيبى.... كفاك، يا حبيبى تعالَ إلىَّ؟ هل ترانى؟

كنت أراها منذ لحظة تمرح هناك فوق الجبل العالى وتبعثر الحب وسط الطيور.

كنت أراها تملأ البهجة وجهها النضير وترقص على أغنية لم أسمع لحنها.

كنت أراها... الآن أراها ، أسمعها..... هذه الأغنية التى تدعونى إلى الدهشة والخوف

هذه الأغنية التى تدعونى لأبدأ من جديد قصة جديدة ،اسمها الحياة!

هذه الدهشة التى تعلو وجهها وتخلق من صراعاتى شخصًا يستحق أن يحيا فوق الجبل.

شخصًا يستحق أن يلغى كل هذه الذكريات والعمر ليبدأ من جديد تجربة تستحق أن تعاش.

تجربة لا أعرف حدودها ، ولا أعرف ملامحها ، لكننى أعرف شيئاً واحدًا: " أننى أستحق أن أمشى وسط هذه الأكوام العفنة ، وأعبر إليها هناك فى قمة الجبل ، لأرقص معها رقصة الحب الأخيرة ... فهل أنجح؟ لتأخذنى وتهتف باسمى حبيبى... أحبك مهما اختفيت.. حبيبى أحبك مهما انهزمت.. حبيبى أحبك مهما انتصرت ، حبيبى أبوس يديك... أبوس عينيك انهضْ وقاومْ حبيبى .

"العلاج"

كانت خلف صومعة الذرة تفتح لبطِّها قلوب القمح ، وتطبخ له الرهريت ليظل طول اليوم يكاكي ، يذكرنى صوته المزعج بآمال وهي تنشر غسيلها على حبال البيت القديم.

من يشفيني من هذا الصداع؟ قلت لنفسي لابد أن أذهب للحداد كى يسقيني الحليب المخلوط بالزهر.

هكذا قال لي أحمد النجار زوج أم حسين عندما عرضت عليه مشكلتي ، لكن المشكلة أن الحداد لا يمر من هنا إلا كل ستة أشهر ودكانه المغلق والمعلق فوقه لافتة "للتصليحات ، أبو حسن يموت" انتظروه يوم عاشوراء القادم ".

سألت الأصدقاء الذين ماتوا والذين رحلوا أين أجد اللص؟

أيسرق علاجي ويطفش ، قالوا .. خذ حقنة العلقم من عند الحكيم الذى يعيش جوار جامع السيسي ، كان ضخمًا وصوته الفخم وملابسه السوداء وعمامته تدل على حكمته ، سألته: " يا حكيم عندك حقنة علقم؟ "

مسح الجكيم على خدي ، وقال: "يجعل طريقك زمردًا والحصى مرجانًا " ، وذكرني بيوم لم يأت ، تقول فيه الأيام : "الشمس ضلة لحبيبى" قلت: " يا حكيم من أكون؟ ولماذا أنا أسمع كل هذه الكلمات ؟ لماذا ذهبت الي هناك وتركت ناسي؟

قال: " لماذا سافرت؟ اجلس مكانك ولا تبحث عنهم ، تركوك اتركهم ، هذا هو حال الحبيب ، أن تعيش غريباً وتطوف حواري المدينة وتترك العمر يمر وتنتظر رجوعك.

قلت: " ماذا يعني الاخلاص؟ قال: "اليوم الذي يمر دون مقتل أعز ما نملك" .

الصرع يشلنى فأرتمي بالشارع ، يسرقني الناس ويأخذون قوت يومي ويتشدقون ، لقد وجدوها هناك خارج المدينة تتسول الضحكة ، والدجالون يحيطون بها وهى تقايض على جسدها ، كانت تناديني: هل عندك علاج المر والعلقم؟ قلت: " هل عندك علاجى؟ .

"قالت: " علاجك علاجى وأنت على مر الزمان تبحث عنه ولن تجده " ، قلت: " نصيبي أن أعيش هنا فهل معك العلقم؟ " قالت: " حقن .

قلت أعطني واحدة " ، قالت: " بقلبك ، قلت: خذيه ، فتحته ولم تَجد شيئاً ، كان ناصعاً كالحليب ، لكنها عكرته ، وشربت كله ولم ترتوِ ، كان يملؤها جفاف ، أخذت حليبي وجفت .

قلت علاجي ، قالت بقلبك ، نظرت يمينا وشمالاً ، بحثت عنها ، حاولت إعطاءها قلبى ، حاولت أن تعطيني أغلى ما تملك ، لكن أمي صرخت في البط بعد أكل قلب القمح ولم يكاكى.

"حكاية بنت"

اسمى نشوى ، عمرى اثنان وعشرون عاما ، غير متزوجة ، أصحو من نومي فى الصباح ، وأصفف شعرى أمام المرآة وأضع المساحيق ، وأخرج للشارع يشتهينى الناس ، لحمى أحمر ، نهودى متزنة على صدرى ، سيقانى ممتلئة ، لى عيون فاحصة ، ولم تصادفنى حتى الآن عيون لم تركع امام عيوني.

من يأخذنى يشبع وأجعله أسعد إنسان ، سأجعل لحظة ارتباطه بى هى العالم والدنيا.

اسمى نشوى ، عمرى ثلاثة وعشرون عامًا لكنى أشتهى كل الرجال ، لى عيون البقر الناعس ، مؤخرتى كبيرة نسبياً أهزها برفق ليبلع الرجال ريقهم.

لم أحب فى حياتى لأنهم أحبونى جميعاً ، يتركنى أبى أفعل ما أشاء ، فهو مثل أمى أتعبته الحياة ، أسمع تعليقات الرجال وأنا أسير فى الشارع ، والتعليقات تبدأ من شعرى الطويل الناعم إلى رقبتى المرمرية ونهودى الرمان وسيقانى المليئة حتى أصابع قدمى لم يتركوها.

أنظر فى عيون الرجال أراهم يرفعوننى فوق أفخاذهم ، يعتصروننى حتى الموت ، أريد ألف رجل يعتصرنى.

لا يملأ عينى رجل ؛ لأنه لا يوجد إلا رجال قصار النفس ، اسمى نشوى عمرى خمسة وعشرون عامًا ولى ضحكة أعرف جيداً كيف أضحكها ، لكنى الآن أعمل فى محل أحذية بشارع سليمان ، يشدنى دائمًا صاحب المحل ويعصرنى بالمخزن ، لكنى لا أحب إلا جيوبه ، يداعب نهودى دائمًا ، وعندما يقبلنى أتأفف من رائحة فمه.

لكنى حذاء يلبسنى وقتما يشاء ، هل يستطيع أحد أن ينتشلنى من وسط الأحذية ، ورائحة أقدام الزبائن؟! أعمل عنده خادمة ووصيفة ، أفهمه إذا أشار لأننى أفهم فى لغة العيون.

اسمى نشوى عمرى ستة وعشرون عامًا ووجهى يلمع دائمًا ، ستجدوننى من العاشرة صباحاً إلى العاشرة مساءً عدا الأحد فى ممر سليمان ، سأنتظركم لترونى أنفسكم وأريكم قدرتى.

أنا لا أشبع أبداً ، فهل تستطعيون أن تشبعونى ، الجيبونة التى أرتديها أتصورها رجلاً ، الشراب الشيفون أتخيله رجلاً ، مشدى أتمناه يد رجل ، سروالى الحرير القصير أتخيله قضيب كل الرجال.

هل تستطيعون أن تحققوا حلمى أيها الرجال قصار العمر ، أخاف أن أموت قبل أن أجربكم جميعًا.

اسمى نشوى ، عمرى ثلاثون عامًا مؤهلى دبلوم تجارة ، جربنى كل المدرسين وجربت كل الطلبة الذين فى عمرى ، وقفت أمام كل محلات الفضة والخردوات ، سمعت كل الرجال الضعاف ومسحت بمؤخرتهم الحوائط والأرضيات.

أريد أن أسمع رجلاً لا يشتهى صدرى الحلوب ولا أفخاذى اللينة ولا ملمس شفتى.

اسمى نشوى وعمرى خمسة وثلاثون عامًا ، ولى أنشودة أغنيها كلما حل المساء ، أريد حياتى بعد مئات السنين تحفر فى ذاكرة أحفاد الذين أعاشرهم.

أحب الرجل أن يعاين جسدى قبل أن يبدأ ، أريد سهاماً فى عيونى تملؤنى وتذيب جليدها فىَّ ، أنا اليوم مشتاقة إلى من ؟ إلى الطرابيش الطويلة ، أريد المدن التى لا تأتى والتى لا تعود ، المدن الباهرة المزمجرة.

اسمى نشوى ، وعمرى أربعون عامًا ، نسيت أشياء كثيرة ومن الجائز أن أحكيها لكم حين تأتونى فى يوم ما ، ياه ، أنا اليوم حزينة ولونى مخطوف ؛ لأننى أريد أن يطير حصانى للمدن البعيدة التى لم أشبع منها ، المدن الآمنة المملوءة بالحب لا بالنشوة ، اسمى نشوى وأريد رجلاً يحتوينى.

"الشر"

(أ)

جحر الثعابين

هل يمكن أن يعيش خمسة وسبعين يومًا فى حياته دون كذب ، المواطن الثعبان سوف يحكى لنا عن خمسة وسبعين يومًا عاشها صادقًا فى حياته ؛ لأن آخر يوم فى هذه المدة أعلن جنسه وانتحر.

وجعلنا شغوفين بالحكاية ، فكيف تمكن الإنسان من العيش صادقاً كل هذه المدة الطويلة ، هذا ما سوف نراه.

بدأت الحياة تضج من النياشين والبراغيث والثعابين ، وتلونت الحرباء بلون العقرب وضاع الفرق بين السحالى والأبراص ، حتى هاجت الثعابين كلها حزينة بمولد ثعبان جديد ، ثعبان رفع أثقالا وأحمالاً فوق ظهره خمس سنوات واختفى فى أدوار كثيرة ، أدوار الأسد والقط والكلب والحمار.

وفى النهار خلع كل ملابسه ولبس ثوب الثعبان الأصفر الشراقى الذى لا يرحم.

هاجت الثعابين عندما خرج و قالوا: " هذا ليس ثعبانًا ، هذا حمار وله ذيل ، وأنفه لا يمكن أن تكون مثل أنف الثعبان ، أنفه طويلة وعيونه بها براءة الحمير فى فصل الصيف.

وآخرون قالوا: " هذا ثعبان ابن ثعبان ، وشراقى وأصفر ولن نتمكن من لدغه لأنه شبع لدغًا فتسمم جسده.

جلس صديقنا بجوار الحائط ملفوفاً على نفسه ، وحاول أن يحكى كيف أصبح ثعباناً وقال: " أنا الحمار الكذاب أحتار فى أهل الخبرة ، حاولت أن أكون حماراً فنهقت الحمير رافضة ، قلت للجواميس الواقفة: " أنا منكم قالوا: " لا ، أنت كذاب ".

قلت: " أبحث عن جنس أنتمى إليه ، قالوا: " أنت برص ، لطختنى سحلية عريضة وقفز كبير الأبراص ولدغنى وقال: لكل نوع من الحيونات مميزات وأنت ذيلك قصير مثل المعيز.

صرخ كبير الجديان ورفسنى فى بطنى فوقعت على الأرض فقالوا: " حمل وديع يبكى مثل الخرفان ويشهق ".

بكت النعجة وقالت: " ليس منا.

دق أبواب كل الحيوانات ، نهرته الأنواع الصغيرة قبل الكبيرة ، فقال فى نفسه: " جربت الصراحة فرفضونى سوف أتلوى كالثعابين وأقفز هنا وهناك ".

آكل على كل الموائد ، وأنافق الكبير والصغير ، الأمير والفقير ، المهم أن يكون لسانى جميلاً وسامًا فألدغ وأغوص وأسحب وأجر وأشد.

هذه هى المهنة التى تناسبنى ، عاش صديقنا بين الشقوق يتلوى ويتلون ، يحاول أن يضبط إيقاع وسطه على دق الطبول.

ها هو يرقص على كل الألحان التى بدأ يحفظها ويعرفها عن ظهر قلب ؛ الثعابين الكبيرة تنظر إليه بقرف ، الثعابين الصغيرة لا تتآلف معه.

كان يومًا رطبًا والثعابين المجذوعة فى الجحر ترقص على أنغام الخيانة ، الكل يتلون ويخلع رداءه فيلبسه الأخير ويزعق.

الثعبان الأصفر الفاسق يتلوي، والشعر يملأ صدره ، تخيلت أن له أجنحةً تطير ، كان يطير ويلدغ ثعباناً صغيراً فيموت.

والثعابين التى تملأ الجحر ترفع الثعبان الضئيل وتقذفه بأقصى ما لديها فى مراحيض الجحر بعد مص دمه ، الكل يغنى ويرقص فرحاً بالثعبان الليدر.

الرهبة تملأ صدرى وذيلى يحاول أن يهرب منى ، يطير ثعبان أسود ويلدغ ذيلى ، فأتلوى

فينحنى آخر على فمى فيخرسنى، أحاول الهروب ، أجرى بعيداً ، فترقص الثعابين فرحة بسقوطى.

الثعابين الكبيرة تقف وسط المنصة أعلى الجحر ، وتبصق فى وجهى وعلى ضعفى وعلى جهلى وعلى لون ردائى.

الغل يخرج من العيون ، والحقد يملأ كل القلوب.

الثعبان ينظر إلى أخيه الثعبان نظرة خاطفة ، فيلتفت الآخر ويلدغه والرقص يتناوبه الجميع.

من يخطف يجرى ويختفى خلف الجدار ، هاك لقمتى ، فيتوه الثانى فى الصحراء ، لا هذه لقمتى ، ويغنى الجمع لكبير الثعابين ؛ أنت مولاى وولى نعمتى.

(ب)

طريق الثعابين

أتذكر هذا اليوم وأنا طفل صغير أمشى على شاطئ الترعة ، فوجئت بمياه الترعة تجف ، وتمتلئ بالثعابين السوداء والصفراء كأنها الطين الراكد بقاع الترعة ، تخرج العشرات منها وتجرى وراء بعضها على الطريق المؤدى إلى العزبة وأنا أجرى سريعاً ، فيزحفون وراءى وخلفى ، وأنا أحاول أن أجد موضعاً لقدمى على تراب السكك.

يومها وجدت عبده مرجان تاجر الاراضي وشيخ المنصر يقف بحمارته السوداء وسط أكوام الثعابين بسواد وجهه يضحك ، وقدمى تبحث عن موضع خال فى الأرض من السم والثعابين.

(ج)

مقص الحمير

لم أتذكر قط هذا اليوم لكن اليوم آن أوان تذكره ، صورة جدى المسالم وأوباش السوق والإهانات التى أخذها على وجهه الطيب وذقنه البيضاء.

كان الشرر يتطاير من قلبى الضعيف ، كنت طفلا لم يتجاوز الثامنة ، أمسكت مقص الحمير

وفتحته فى وجه الكلاب ، كان جدى مفزوعا من ضعفى.

كيف يمكن لطفل أن يفترس الأعداء؟! قاومنى وقاومهم ، أحب فىَّ ضعفي وقوته.

مال على الأرض مدافعًا عنى بحبه للحياة ، وأخذنى فى حضنه الدافئ ، لكنى انفجرت باكياً أبحث عنهم كى أُعَلِّم فيهم بمقصه الحاد.

(و)

التحول

لماذا نضحك عن ظهر قلبنا ، هل هناك مساحة فى هذا الكون لكل هذا الضحك ، ومن أين يأتى؟ وكيف يتحول الحمل الوديع فجأة إلى ثعبان أسود شراقى يلدغ الحمل الوديع فيموت؟!

هل يمكن للعصفور الصغير أن يصبح عقربًا؟! لماذا تغنى العصافير فى الصباح وتخون الحية؟

ما مخزون الإنسان من السعادة والحزن والحب والكره والغل والحقد والإرداة والضعف والمبادرة؟

هل نتحمل مسئولية كل هذا؟ وكيف تعيش الحملان وسط العناكب والخفافيش ، كيف تعيش؟

(هـ)

لون الدم

هل يخفينى لون الدم أم أحبه؟ وهل هناك مشروعية لكل هذا العنف؟

ما تلك المناطق المجهولة التى تبرر للإنسان أن يؤذى الآخرين؟

وكيف يمكن أن تحب الناس وأنت تؤذيهم؟ هل يمكن أن تحب الناس لدرجة العشق وتؤذى ابنك؟

وكيف وأتتك تلك القسوة والقدرة على الإيذاء؟ ومن يحمى الناس من جبروتك؟ ولماذا رفعت الناس راية سيد سبرتو وهو يهوى بزجاجة البيبسى على رأس أحد المارة فينفجر الدم ويتحاكى أهالى السوق بفَتْوَنة سيد سبرتو؟

هل يمكن أن تأكل الناس لحوم بعضهم ؟ هل يكون طعم الدم ولحم الإنسان كلحم البقر؟ وما الفرق بين كبدة الإنسان وكبدة الخرفان؟ لماذا نستلذ باللحوم المشوية؟ لماذا تتحول وجوه البشر فى بعض الأحيان إلى وجوه مفترسة؟ أتتوقف أجهزتنا ، أم أن أجهزتنا وقتها تعمل بكامل طاقتها؟ أيشفى كل هذا العنف ، غلاً وحقداً نحمله منذ الطفولة؟

أم يتراكم الحقد والغل داخل أجهزتنا حتى تتوقف عن عملها؟ أيفقد الإنسان وقتها دفعة واحدة كل شيء ، أم أن هذا هو الرد الطبيعى على تراكمات الغل على مر السنين؟

(ى)

الانتحار

من يستعين بأمى فى هذا اليوم لأرتمى فى أحضانها الدافئة؟ أمى التى لم تأخذنى إلا مرات قليلة فى حضنها.

أستنجد بها فى نومى وأحلامى من الكوابيس ، صغيرًا كنت حين رمانى عمى من فوق الحمارة بقالب الطوب فى ظهرى فوقعت على الأرض.

الحمارة تجرى خلفى ، فيلوى رقبتها لتدوس علىَّ ، أقوم وأركض على الطريق فيلقفنى بقالب آخر من الطوب فى قدمى وأقع ، فيلوى رقبتها لتدوس على ظهرى أتحاشاها وأقفز على الطريق وأعدو.

كانت الشمس تتوسط السماء والحر يحوم على الزرع فيحرقه ، وجسمى يتصبب عرقًا وأرتمى على الأرض مرة أخرى فيدفن وجهى فى التراب ، وتعمى عينى لمدة دقائق كثيرة ، وأقوم وأجرى ، هكذا حوصرت ، لا يوجد مخرج ، طوب العم من فوق وأقدام الحمارة وتراب السكك من تحت؟!

كانت مياه الترعة تنادينى فقفزت وأنا ابن ستة أعوام ، وانتحرت.

كان قراراً بكره الحياة ، كان قرارًا بانزال كل الحقد والكره والقسوة عن ظهري ، كان قرارًا أخيراً لأحيا الحياة.

واليوم أنادى عليكِ ، فهل تسمعيننى؟ أيمكن لمنتحر أن يحب الحياة؟

وكيف نوصف تلك الحادثة؟ هل كنت شجاعا ففضلت الموت على الحياة؟ وهل هذه تسمي شجاعة ، أم كانت منتهى الخوف؟

"لحظة حياة"

كان يشاركني لحظة الكتابة ، كان ينطوى دوره على إيقاظ حواسى كى أستطيع "تجميع نفسى" ، هكذا قلت له حين باغتنى بسؤاله "قاعد أد إيه يا أستاذ؟"

كانت حواس عقلى تتفتح لكل هذا الحقد المتوارث الذى ترعرع فى عروقنا كي ننتشل كل هذا الظلم منا؟

كان الفيومى يقتصر دوره على رؤية لحظة غرقي، وينظر إلىَّ ويتعجب ، لماذا تحرق نفسك كل يوم يا أستاذ؟

فاجأنى بالسؤال.

هل تكفى كل هذه النار كل يوم ، كى أكفر عن ذنوبى؟ هل تكفى؟

كان أخي يمتطى فحله الجاموسى وأنا أركب أمامه ، خلفه ، يحيط ذراعى بقلبه ، يمسكنى ، يخاف علىَّ ، يحافظ على قلبى المحترق !!

آه يا قلبى ، لماذا تعاندنى ، وتصمم على تطهيرى كل عدة سنين من السموم العالقة بدمى؟ لماذا تجفف كل منابع الحب من شراياينى.

باغتنى الفيومى ، لماذا تحترق؟ أليس هناك ما يستحق الحياة؟

كان قلبى يحترق فى دفء أخى الحريص ، فى عيون أختى ، فى أحلام أبى ، وفى سلام أمى ، فى أيادى الفلاحين المشققة .

أعوام كثيرة مرت ومازلتَ تبحث عن موقد لتحرق فيه كل شرايينك كى تتطهر من هذا الحقد والكره ، آه يا قلبى القاسى ، لماذا تحب هذه البلاد؟ وتعشق الحقول الواسعة ومياه الترعة وقعدة العصرية وكوب الشاى وكرسى المعسل وسهراية الغيط فى يوم الحصاد اوالزرع ، لماذا تحب هذه البيوت وتصميم العمال وبنات البندر وهواء الغربة؟

باغتنى الفيومى ، قاعد كتير يا أستاذ؟ قلت: " لن اتأخر " ، "إننى أجمع نفسى" من الحقول والمدارس والبيوت ، من العيون المنكسرة ، ومن روائحهم وعرقهم ، كيف يمكن حرق كل هذا ، كيف؟ ولماذا كل هذا الحب الأبدى لمعشوقة لا تراك أو تحس بك؟ كلما أعطيتها طلبت اكثر وأنت العبد الفقير تزحف يومياً إلى قريتها وأرضها العطشانة لترويها ، وكلما أعطيت طلبت اكثر ، من يكفيها حباً؟ من يكفيها؟ من يعطى لها الأمان لتعيش هانئة؟ من يعطى لها ليرفع قيمتها عند الجزار والنجار والحداد والبقال؟.

من يشترى قلبى المحروق ليعطى لها الحياة؟

يباغتنى الفيومى: "يا أستاذ... هتقعد كتير؟"

"غرفة الإنعاش"

أدخل الإنعاش وأصحو على صوت الممرضة العتيقة: " لسَّه فيك نفس**!** "

أصحو مندهشاً على البلازما الأرضية التى تلتهم ضلوعى ، كيف نجوت من أحداث الليلة الفائتة؟ انتظرت كثيراً خلف الأشجار التى تساقط ورقها ، كانت أمى تطلب التوت الحبشي للشجرة التى تحيط بمدار الحلوفة.

هل تتذكر طعم توتها الحبشي؟ لم يكن لها مثيل شجرة جدى التى تنتجه ، حين قابلني أحد جيراننا والذى كانت مشاكل أبى لا تنتهى معه ، قال لى وهو يقف تحت أشجارهم التى تساقطت أوراقها للأبد وأصبحت ناشفة ولا تصلح إلا للنار : كانت أمي تطلب منى التوت الحبشي ، كان طعمه لا يضيع من الفم أبدًا.

أراجع نفسى مرة أخرى وأتذكر أننى هنا فى فندق بعيد آلاف الأميال عن أمى وأشجار التوت وأتساءل: " هل لو رجعت الآن سأجد الشجرة ، ولماذا جفت كل الأشجار؟ ولماذا لم تعد تصلح إلا للنار؟

كانت الممرضة العتيقة تحاول أن تلبسنى ملابسى البيضاء كى أذهب لسرير المرضى بعد خروجى من غرفة الإنعاش ، كانت يداها الغليظتان حول فخذى تذكرنى بجميلة التى انتظرتني خلف الممر وصدرها الأبيض يلمع فى ازدهار ، لو رأته الأشجار الناشفة لاخضرت وأعادت من جديد إثمار التوت الذى لم ننس جميعاً طعمه.

كيف استطاع الجفاف أن يحول حقلنا إلى أرض شراقى لا تصلح إلا ممرات للسحالي والثعابين؟ كيف استطاعوا أن يردموا الترعة بهدوء حتى جفت المياه؟! ولما حاولنا أعادة المياه عن طريق الآبار ، أحاطت بنا المبانى ليلقى علينا السكان من غرف النوم والمناور والمطابخ بفضلات الطعام .

كنا ننظف كل يوم أرضنا ونحرق البلاستيك وقمصان النوم ويلم أبى الطوب ، لكننا تناسينا فى يوم أن نذهب للحقل ، وعدنا لنجد أرضنا أصبحت خرابة ومقلباً للقمامة ولا تصلح للزراعة ، والشيء الوحيد الذى أتذكره فى هذا اليوم هو منظر الشجر الناشف الذى لا يصلح لشيء إلا للنار.

أدخل غرفة المرضى مرة أخرى ، الأسِرَّة المتلاصقة بجوار بعضها البعض ، أهالي المرضى يتشحون بالسواد ، لكن بعضهم يدخلني مرحلة الخطر ليعيدونى مرة أخرى بعد ثلاثة أيام إلى غرفة الإنعاش ، لأنام وأفيق فيها عشرين يومًا أخرى ، ولا يغيب عن بالى ولا ذاكرتي التى لم تشاهدها الممرضة العتيقة ولا الدكتور المعالج ولا أبنائى ولا أحد من الاهالي المتشحين بالسواد ، مشهدُ الأشجار الناشفة على رأس الحقل وقد جفت أوراقها ، ولم يعد لتوتها الذى لا ينسى طعمه اي أثر... لم يعد إلا الجفاف والنار والفضلات.

لكن الشيء الذى كانت الممرضة العتيقة تخرجنى بسببه من الغرفة هو مشهد جميلة بصدرها الممتلئ بالحياة حين تملأه البسمة والضحكة والحيوية ، كانت الممرضة حين تشاهدنى وأنا مع جميلة تتأكد بأننى قد شفيت ، فتعدينى مرة أخرى لحجرة المرضى.

"**الحاضر** "

العالم يخلق داخلى إطارا فارغ للتصالح كى أستمر ، الأصدقاء القدامى يأتون واحدًا بعد الآخر يجتمعون ويحاولون افاهمي أننا نعاشر بعضنا دون كُرْهٍ.

تأتى حبيبتى مع ثلاث فتيات ورجلين نعاشر بعضنا البعض جماعة وفرادى وأنا غير حزين لمعاشرتها آخرين فى وجودى.

أتساءل كيف يحدث ذلك؟ كيف تقبلت ذلك؟ تدخلني فتاة تلبس قميصًا أبيض الي حجرتها ، وترفعني إلى السرير النحاسى الذى كانت أمى تنام عليه ، ثم تخرج لتعاشر صديقى فى الحجرة المجاورة.

أتدحرج فى السرير فتلفحنى يد ابنى وأصحو ، أدخل الحمام أسحب السافون ، يذكرنى صوته بصوت الشقة التى كنا نجتمع فيها ، يومها وبعد أن انتهينا من الشرب دخلت الحمام لأفرغ كل ما فى بطنى ، ونسيت سحب السافون ، فدخلت صديقتى وهى تلبس قميصها الشفاف وشدت السافون ، ونظرت إلىَّ بعتاب ، وأخرجتنى إلى الصالة ، لأجدهم كلهم مجتمعين: أصدقاء المدرسة القدامى ، ، والصنايعية ، ورفاق الطريق الذين ضلوه ، والنساء اللائى ترافعت عنهن واللائى عاشرتهن وهن مندهشات من آثار الترجيع على ملابسى يسخرون من وجودي بنظراتها ويبادلوننى نظرات العتاب لانني عاملتهم دائما بسوء نية.

اعود للحجرة وأنظر حولى ، فلا أجد إلا البنت ذات البلوزة البيضاء ، وهى تشبه صديقتى الدكتورة التى عملت بالصحافة بعد إغلاق عيادتها لأنها رأت أن التفتيش فى أوجاع الناس ونشرها أهم من علاجهم ، كانت تتلوى فوق السرير حينما أتت صديقتها لترميتي علي السرير وتلحس جسمى وأنا أنتشى من ممارسة الجنس معهما الاثنتين.

لم يخرجنى من الحالة إلا صوت موبايلى المزعج ، كى يذكرنى بموعد مهندس الصيانة الذى كنت قد وعدته بالأمس للذهاب معه إلى المكتب صباح اليوم لتصليح جهاز الكومبيوتر ، لكننى اعتذرت وقلت له سأسافر لأختى برشيد لان زوجها هددها بالطلاق بعد اكتشافه علاقاته بعاملات مصنعه الذى ينتج الأسماك المجففة.

أنهى المهندس مكالمته بموعد آخر ، وتركنى على كنبة الأنتريه منتظرا عودة البنت ذات الرداء الابيض من حضن صديقى لتطبطب علىَّ وتحتضننى وتأخذنى إلى حجرة صديقى الذى ينام فوق رفيقتها وتقول: " نحن نعيش هنا جماعة ، ونلبى احتياجات بعضنا دون كره ، كيف لا تستوعب ذلك بعد كل هذا العمر بيننا؟

أرى أصدقائى جميعا يجلسون معًا فى صالة الشقة ويفاجئنى أبى وعمى بوجودهما وسطهم ، أتحرج منهما ، أحاول مداراة وجهى ، فيتفهم أبى ويقول: " نحن هنا نعيش جماعة ، لا تخف ، لا تقلق " ، حتى عمى يطبطب علىَّ بعد خروج ابي ويقول : لا ترتعش كالطفل يش حياتك.

جرس باب الشقة يرن لأتفاجأ بأم صابرين البوابة تطلب منى فتح الموتور لتمسح السلم ، أغلق الباب وأدخل المطبخ وأفتح الموتور ، يصحو ابنى ويطلب منى السماح بالذهاب إلى حقل جده الذى حوطته البيوت .

زوجتى تصرخ من الحجرة الملاصقة للصالة ، وتحذره من الذهاب للحقل حتى لا يصاب بالجرب ، يضحك ابنى ويسخر منى لأنى أحلم بجماعية الحياة ولا أستطيع منع زوجتى من إهانته ، ينظر إلىَّ مرة أخيرة ويذهب لسريره كى يستكمل نومه وأنا أحاول ارتداء ملابسى لأذهب لعملى دون أن يرانى أحد رغم أنهم يحيطون بى من كل اتجاه.

الوراق

٢٠٠٠-٢٠٠٨